أشبيلية الرومانسية

مليئة بالتاريخ والإثارة

> حبيب سلوم

لقد كنت متعباً جداً وأنا أكمل الدرجات الأخيرة للجيرالدا: البرج العربي لكاتدرائية أشبيلية المبنية على النمط الغوطي، وأبرز النصب في المدينة ورمزها. وبرج أشهر كاتدرائية في أسبانيا، وثالث أكبر كاتدرائية في العالم، هو أعلى برج كنسي في أسبانيا. بنيت الكاتدرائية فوق أسس المسجد الكبير لأشبيلية ومنذ قرون وهي تجذب أعداداً لا تحصى من السياح. منذ 758عاما، والجيرالدا وكاتدرائيتها، وغيرها من الهياكل التاريخية القريبة، كانت دائماً تذكيراً خالداً بالعرب ومعمارهم، جاذبة الملايين من السياح إلى أشبيلية.

وجهدت وأنا أصعد المنارة السابقة بارتفاع 97 متراً (318 قدماً) التي كانت ذات يوم مئذنة المسجد الكبير في المدينة. تبدو السماء كأنها قريبة حتى قبلما أصل إلى القمة. كنت منهكاً تماماً ومتعباً، فأمسكت بجانب السور، ومع تضائل الشفق، ألقيت نظرة كاشفة على المحيط من حولي.

في الأسفل، كانت باحة "الباتيو دي لوس نارانخوس" عامرة بأشجار البرتقال المزهرة. وهذه هي في الأصل باحة المسجد، فأعادت إليَّ ذكريات العرب. ووقفت حول الباحة الأجزاء المتبقية من المسجد، مثل الأقواس والأبواب وأقسام من الجدران وقد أدخلت الآن في الكاتدرائية، ولكنها واضحة للعيان. وعلى البعد، من جميع الأطراف، كانت ألوان الأفق القوية، التي تخللتها أبراج عدد لا يحصى من الكنائس، أغلبها مآذن المساجد السابقة، تعكس صورة مبهجة لمدينة شرقية. ويخيل لك أنه في أية لحظة سوف يعود العرب فتكتمل الصورة.

أشبيلية هي أقدم وأغنى المدن في الأندلس وذات تاريخ ارستقراطي. وهي أيضاً مركز حضري كوزموبوليتاني يسكنه نحو مليون و 300 ألف نسمة، ورابع أكبر مدينة في أسبانيا وعاصمة الأندلس. وكانت في أيام الرومان وقبلهم مركزاً

ساحة أمريكا

Plaza de America

جيرالدا
Giralda

حضرياً هاماً، ولكنها بلغت أوج عظمتها تحت الحكم العربي الإسلامي. وقد سماها العرب "أشبيليا" تعريباً لكلمة "سيبيل" وأصبحت عاصمة باهرة وبيتا للملوك، والموسيقيين والشعراء والأدباء.

استعاد المسيحيون المدينة في العام 1248 م، ففقدت بعدها بعضاً من أهميتها لقرون. ولكن بعد اكتشاف القارة الأمريكية، أصبحت أشبيلية مهمة مرة أخرى جراء سيطرتها على مدى عقود طويلة على التجارة مع العالم الجديد. والثروة التي تولّدت عن ذلك جعلت من هذه المدينة واحدة من أغنى المراكز الحضرية في العالم ومركزاً تجارياً وفكرياً، وهو الموقع الذي مازلت تحتفظ به اليوم.

ومع ذلك، فإن الآثار الشهيرة في القسم القديم من المدينة كلها تقريباً تراث عربي، ومن بينها القصر، وهو قصر اشبيليه العربي الرائع الذي أقيم في القرن الثالث عشر الميلادي، وهو أضخم من الجيرالدا. وكان ذات يوم قصر الملوك العرب، ولكن أعيد بناؤه في العام 1360 م بواسطة الحرفيين المسلمين المدجنين الغرناطيين بأمر بيتر القشتالي القاسي. وفي وسط الغرف المزيّنة بآيات من القرآن الكريم بالخط الكوفي الجميل، ومضمّنة في معمار المدجنين، الذي هو أجود معمار في أسبانيا، صورة بيتر القاسي وهو محاط بالحراس العرب، ويسلّيه راقصات عربيات وشعراء.

الباحات المزينة بشكل مسرف والغرف المحيطة بها تضمنت بعضا من أروع أمثلة الفن الإسلامي الأسبانية، وهي تذكّر الزائر بقصر الحمراء الشهير في غرناطة. وفي الخارج، هناك الحدائق العربية المعتنى بها بشكل جيّد والتي تضم نباتات صغيرة وأخرى متسلقة تعج بالياسمين، والليمون، وزهور البرتقال، مما يعطي القصر طابع "ألف ليلة وليلة". وتحت ظل الأقواس العربية والطابوق المصمم على نمط الارابيسك، ينكشف الباريو دي سانتا كروز، وهو يدعو الزائرين إليه بنداءات لا تقاوم.

الباريو الرائع هو تذكير بالعهد العربي الإسلامي، وهو أكثر معالم المدينة إثارة، ويتألف من فسيفساء متشابكة من شوارع ضيقة وأزقة مرصوفة. وعادة ما تكون هي المحطة الأولى للزائر، وهي القسم البهيج في المدينة حيث يعيش المرء مجد المدينة العربي الغابر.

هناك قول أندلسي "من لم يرَ أشبيلية، لم يرَ شيئاً عجيباً". ويمكن للمرء أن يذهب إلى القول بأن "من لم يزر الباريو سانتا كروز فإنه لم يسافر حقاً إلى أشبيلية". وفي هذا الجزء من المدينة يمكن أن نتعاطف مع المعتمد، ملك أشبيلية الشاعر الذي نفاه المرابطون عند احتلالهم لمدينته، وهو يعالج شوقه إلى مدينته الجميلة.

وشوارع هذا الحي التي تعج برائحة البرتقال، تقبع تحت الفوانيس المصنوعة من الحديد والتي تلقي بظلال على الجدران البيضاء اللامعة، وحيث النوافذ الجميلة تختبئ خلف مشبكات رائعة؛ والساحات الصغيرة مليئة بالزهور، وهي تكبّل الزوار، على مدى قرون، بحبائلها الساحرة.

ويعرف الباريو بـ "الحي اليهودي"، وقد أصبح الحي غيتو (مكان إقامة اليهود) بعد الغزو المسيحي في 1247 م، ولذلك سمي بهذا الاسم. ويمتد الحي من القصر شرقاً إلى

منارة جامع سابق تحوّلت إلى برج كنيسة
Former minaret, now a church steeple

كتابات عربية داخل القصر
Alcazar-Calligraphy on inside walls

شارع سانتا ماريا دي بلانكا في الغرب، وهذا كل ما تبقى من التصميم العربي لأشبيلية. وكما كان الحال في العهد الإسلامي، فإن الباريو مكتظ بالسكان. ويفتخر الحي باحتوائه على بعض أغلى العقارات في المدينة، كما يظهر ذلك من تألق البيوت البيض المحافظ عليها جيداً، والمنتشرة على طول الطرق المتعرجة الصغيرة.

ويقع هذا الحي تحت ظلال الجيرالدا والقصر، وهو متاهة من الشوارع الغريبة والنظيفة جداً، المحاطة بقصور ومعالم ذات تأثير عربي، وتتخللها ساحات ساحرة، مع أوراد الياسمين وأشجار البرتقال والتي تملأ الأزقة برائحة عطور أخاذة. وسط هذا التراث العربي، أنشأ التجار محلات للتحفيات وأعمال الحرفيين والمقاهي ومحلات بيع الهدايا التي توفر متطلبات آلاف السياح يوميا.

تقف خلف شوارع المشاة هذه البيوت السكنية مطلة على الأزقة الهادئة وهي مرتبة وسارة للعين. ويقال، وليس صحيحاً اليوم، إن خلف هذه البيوت البيضاء اللامعة كان يحجر على البنات ببوابات للحفاظ على عفتهن.

يمكن استكشاف الباريو في بضع ساعات من النزهة، والأفضل، وللتمتع بمسراته، في غضون بضعة أيام. والهالة العربية للحي والتي تستهوي السياح تضمن أن الزوار لن يفكروا بالمغادرة. معظم السياح يتباطؤون كثيراً ما بين المواقع السياحية، ويقفون في المقاهي المريحة والمطاعم الجيدة التي تغطي كل شبر من الباريو.

الطريق الذي لا ينسى أبداً لاستكشاف الباريو دي سانتا كروز هو الانطلاق من قرب الكاتدرائية، مبتدءاً من بلازا دي لوس ريبس. ويمكن استكشاف أهم مواقع الباريو بالمشي في خط دائري بدءا من شارع ماتيوس غاغو، ثم تسير إلى شارع ميزون ديل مورو، وسانتا تيريزا وشارع دي الأكوا. بعد قصر ارزوبيسبال، المشهور بباحته وسلّمه، ينبغي التوقف عند السيرفيريا جيرالدا التي تضم أجزاء من حمام عربي.

في بداية ميزون دل مورو، هناك حمام عربي آخر، وهو في المكان الذي تحتله بيزاريا سان ماركو، وإلى اليسار هناك الكونفنتو دي

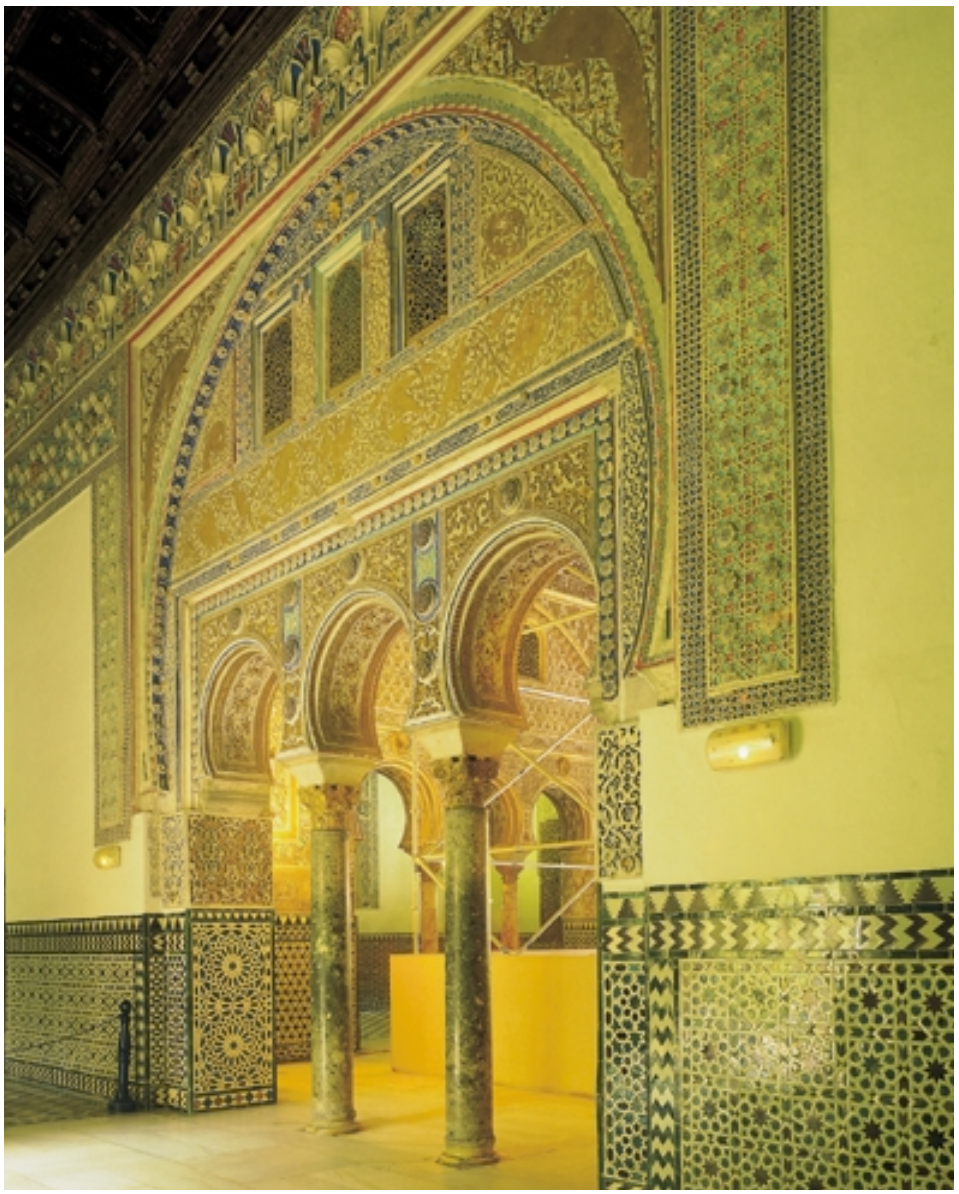

القصر
Reales Alcazar

القصر من الداخل
Alcazar-Inside

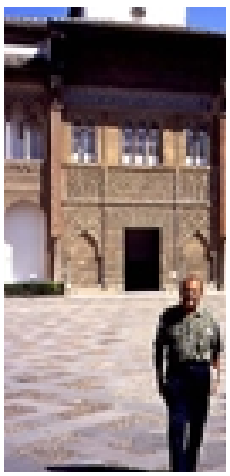

الكاتب يقف عند مدخل القصر
The writer at the Alcazar enterance

خوسيه، وهي بقايا قصر سابق من القرن الرابع عشر فيه نماذج ممتازة من الأعمال الجصية لفن المدجنين، وكنيسة سانتا ماريا لا بلانكا التي ضمّ في جدارها الجنوبي مدخل الكنيس اليهودي الأصلي في الباريو. ويلي بيت موريللو، والذي يضم الآن أعمال هذا الفنان الأشبيلي الشهير، ساحة سانتا كروز، وهي أكثر أنحاء الباريو التي وصفها الزوار، وتحت نباتاته الخضراء والزهور يرقد مشاهير أشبيلية الذين دفنوا هنا.

ومن حديقة الموريللو المجاورة، وهي واحة من المقاعد القرميدية والأشجار الباسقة، يمكن التجوال في شارع أكوا، الذي تحيطه القصور الفخمة والباحات، حتى تصل الكورال دي أكوا لتناول وجبة طعام جيدة فى فناء مغطى بالزهور المتفتحة.

ساحة دوزا الفيرا القريبة هي أشد ساحات الباريو سحراً، فأشجار البرتقال والمقاعد القرميدية فيها محاطة بشكل رائع بالكويفا، وهو مطعم للمتجولين، وكذلك محلات الحرفيين والمباني الجذابة. وفي المساء يجتمع الشباب تحت أشجار البرتقال العطرة ليلعبوا على قيثاراتهم، ولا شك أنهم يأملون في جذب انتباه بعض الفتيات.

وعلى ممشى دقيقة من هذا المكان، هناك مستشفى دي لوس فينريبول، والذي يحتوي على فناء ازوليخو الرائع وساحة الألينازا القريبة. ويمكن للمرء هنا أن يتناول القهوة في ظلال أشجار البرتقال والبوغاينفيلايا قبل المشي إلى القصر لاكتشاف حدائقه ذات النمط العربي والمعتنى بها بشكل جيد، والتي، بلا شك، جعلت من أشبيلية شهيرة في عهدها العربي وفي السنوات اللاحقة.

ويمكن للمسافر أن يستريح تحت ظلال الأشجار في الحديقة والتأمل في جولتهم التي قاموا بها خلال الباريو دي سانتا كروز. وتمثل هذه الجلسة نهاية حسنة لشوارع الباريو المتلوية والساحرة، والبيوت البيضاء الجميلة المزدانة بالنباتات والأزهار، والباحات المذهلة، والساحات المعزولة المليئة بأشجار البرتقال، وقبل كل شيء الجو العربي الذي يملأ النفس بالإعجاب.

القصر من الداخل
Alcazar-Inside

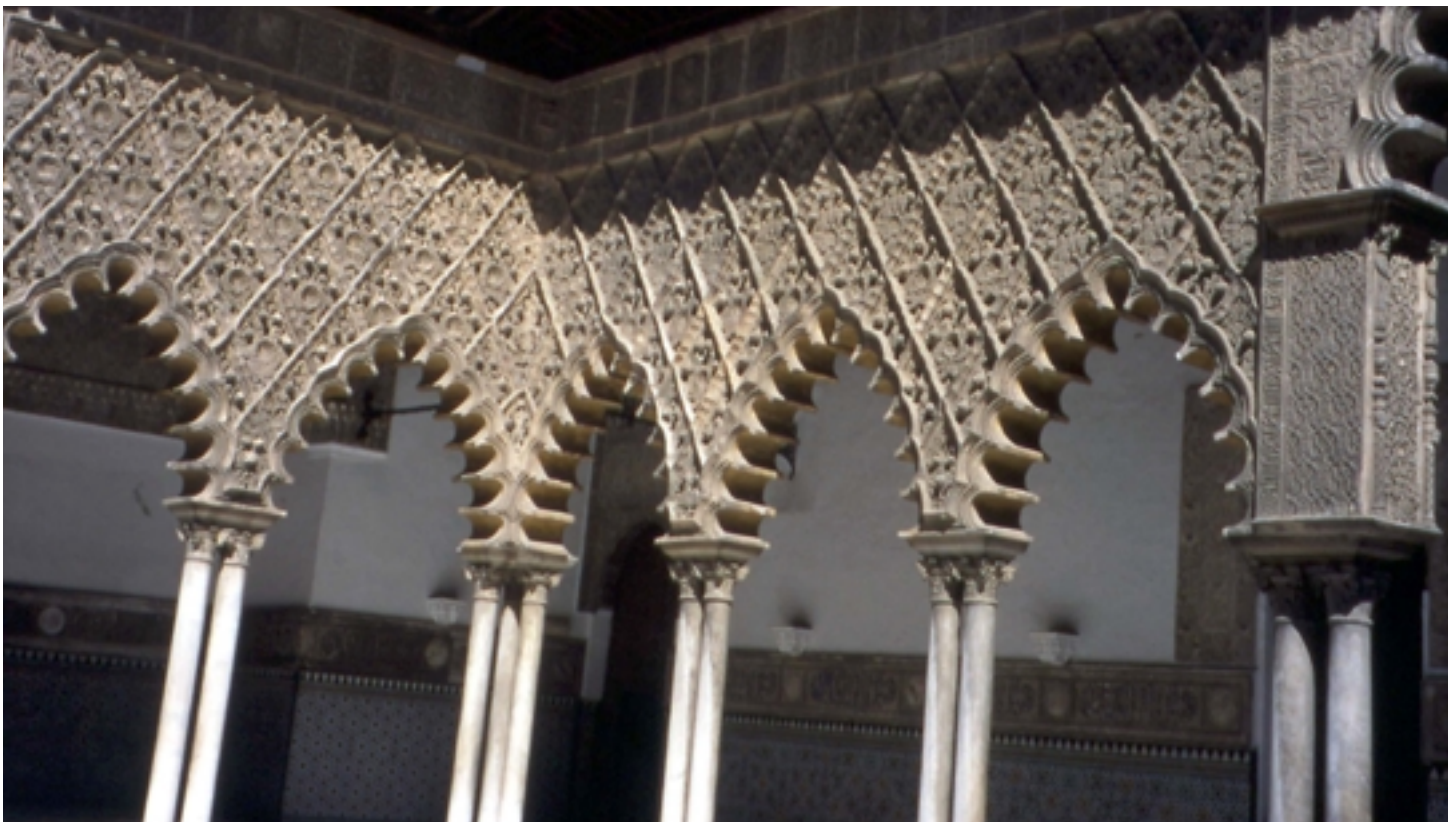

القصر من الداخل
Alcazar-Inside

وليس هناك سوى مسافة قصيرة من هذا القسم العربي، إلى ساحة أسبازا التي تضم برجين سامقين يهيمنان على الأفق ومتنزه ماريا لويزا المجاور، وهو عبارة عن فسحة كبيرة من النباتات الخضراء المعتنى بها بشكل جيد، ومليء بالزهور، والبرك والنافورات المحاطة بالقرميد والمنصوبة وسط مجموعة من الأشجار الشاهقة. وهذا المتنزه، بشكل عام، هو السبب في تسمية أشبيلية بـ "مدينة الحدائق".

ويختفي وسط ألوان الحديقة متحف الآثار والذي يضم مجموعة رائعة من كنوز ما قبل الرومان والعهد الروماني؛ وعلى مقربة منه متحف الفنون والتراث الشعبي، والذي يقع في جناح رائع على نمط المدجنين، وهما مكانان لا ينبغي تفويت فرصة زيارتهما، خصوصا لمن يزور أشبيلية لأول مرة.

وإذا كان لدى المسافرين بعض الوقت فهناك عدد لا يحصى من المواقع الأخرى التي يمكن استكشافها. من بين هذه المواقع برج توريس دي أورو ذو الاثني عشر جانباً، والذي كان جزءا من التحصينات العربية وهو الآن المتحف البحري، كما أن هناك منزل بيلات وهو مثال بارز على معمار المدجنين، وعشرات من القصور والكنائس التاريخية.

وبالنسبة للكثيرين، فإن ما يفوق كل هذه المواقع السياحية هو المعارض والمهرجانات المثيرة التي تجعل المدينة سارة للسياح. وابتداء من يوم أحد النخيل وحتى يوم الجمعة العظيمة، فإن الأحتفالات بهذا الأسبوع المقدس تكون على شكل مواكب لا تنتهي من تماثيل السيدة العذراء المحمولة المزينة بالجواهر والورود- تتبعها فرق وأعضاء أكثر من 100 من الجمعيات الدينية الذين يرتدون قلانس مخروطية مخيفة فيها فتحات للعيون وأردية سوداء. وتسمع ليلا ونهارا صرخات السايتاس (الأغاني الحزينة) التي تمزق القلب ومراثي الفلامنكو المرتجلة من قبل المشاهدين والتي تتردد خلال المدينة برمتها. بعد أيام قليلة من الأسبوع المقدّس، يأتي مهرجان أيام نيسان/أبريل الستة، فتقام المئات من الأكشاك والأجنحة، المزينة بالأعلام والزهور والفوانيس التي توقد

القصر
Reales Alcazar

القصر
Alcazar

فتعطي ضوءاً باهراً، جاعلة من أرض المعارض بخيمها هالة جذابة. وتقام وسط هذه الألون استعراضات رائعة تبرز فيها خيول مطهمة يعلوها أزواج يرتدون ثيابهم التقليدية الأندلسية. أثناء الاحتفالات، تقام مصارعات الثيران التي يشارك فيها أبرز مصارعي الموسم.

سنة بعد سنة، تأتي الجماهير من جميع أنحاء أسبانيا وخارجها للانضمام إلى الاحتفالات. لذلك، من المهم جداً للزوار حجز الغرف في الفنادق قبل هذه المناسبات.

الإثارة والدراما والمسرات الأشبيلية، خاصة خلال مهرجاناتها ومعارضها، قد ألهمت عدداً كبيراً من الروايات والمسرحيات. والدراما الأكثر شعبية في الأدب الاسباني هي رواية دون خوان تينوريو وأوبرا كارمن و"حلاق أشبيلية"، ترتبط جميعها بهذه المدينة. لقد أعطتها سمعة عالمية كمكان للجميلات ذوات الشعر الأسود، والزهور، والمواكب الرائعة، والمرح البريء، والباحات الساحرة. وليست هذه كلها تلفيق من خيال المؤلفين، لكنها الصفات اليومية لأشبيلية، والتي جاء معظمها من العرب المسلمين. ■

الباريو دي سانت كروز
Barrio de St. Cruz

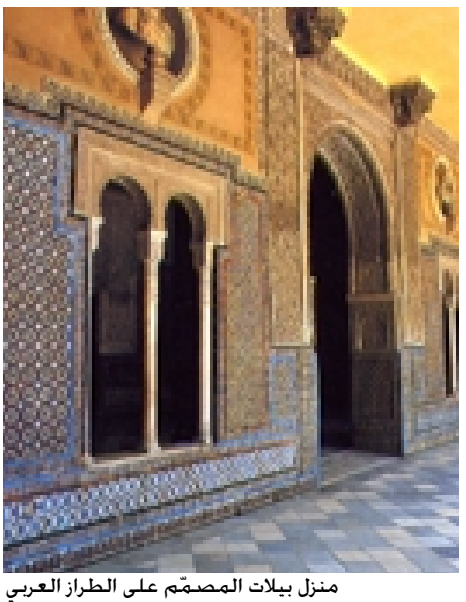

منزل بيلات المصمّم على الطراز العربي
Pilatos' House Built in Moorish Style

منظر لأشبيلية
View of Seville